المسلمون وسؤال النهضة

الأستاذ الدكتور محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة باتنة

مقدمة

منذ أكثر من قرنين من الزمن، وبالتحديد منذ عام 1798 م تاريخ الحملة الفرنسية على مصر وما صاحبها وأعقبها من صدمة حضارية هزت العالم الإسلامي هزا عنيفا، طرح أكبر سؤال في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث وما زال يطرح إلى يومنا هذا : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟. وازداد هذا الطرح حدة وإلحاحا يوما بعد يوم على كافة المستويات السياسية والثقافية، وأصبح يشكل هاجسا دائما تعيشه النخب المثقفة والشرائح الاجتماعية البسيطة سواء بسواء

وقد تعددت الإجابات حول هذا السؤال الجوهري الذي يعبر بصدق عن عمق الأزمة، وينفذ إلى أغوار الواقع الإسلامي المتردي، وتباينت فيما بينها إلى حد التناقض. ويمكن أن نفرزها ونصنفها إلى ثلاثة اتجاهات أو إجابات كبرى :

الإجابة الأولى ترى أن العالم الإسلامي لم يتخلف إلا لأنه ابتعد عن دينه، وأهمل شريعته، وأن دواءه يكمن في العودة إلى الإسلام الحقيقي الصحيح والتمسك بالماضي، وإحياء التراث واستنساخ حقبه الذهبية، والاكتفاء بما عندنا من مقومات، ولئن الاحتماء بالتراث الذي أضفت عليه هالات من التقديس واعتقدت أنه الحق ولا حق بعده، واختارت التقوقع والانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على الاخر ورفضه رفضا مطلقا، مع الإصرار على أن المسلمون لن يعود إليهم عزهم إلا باقتفاء آثار الآباء والأجداد .

أما الإجابة الثانية على سؤال النهضة فهي تمثل اتجاها مناقضا ومعاكسا للاتجاه الأول، وهي ترى أن خروج العالم الإسلامي من التخلف واللحاق بركب الحضارة المعاصرة لا يمكن أن يتم إلا باحتذاء الغرب شبرا بشبر وذراعا بذراع، وقد دعا أنصار هذا التوجه إلى اقتباس الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها، ورموا التراث بالعقم والجمود، ودعوا إلى هدم صرحه ومحوه من الذاكرة،

والانسلاخ منه إيمانا منهم بأن علة المسلمين في إسلامهم، وأن تخلفهم يكمن في تدينهم، وأن التراث سلاسل تقيدهم لتحرمهم من الحركة والتغيير، فرفضوه برمته بما في ذلك قيم الوحي المعصومة .

والإجابة الثالثة حاولت الوقوف في الوسط والتوفيق بين الاتجاهين، فرفض أصحابها جمود الأولين وجحود الاخرين، وآمنوا أن الحياة تتغير كل يوم، وكل تغيير تتبعه حركة تناسبه، وأن هناك ثوابت ترتكز عليها الأمة لا يجب أن تطالها الأيدي بالتبديل، وعلى هذا الأساس اعتبروا وجود التراث في المشروع النهضوي ضرورة لا غنى عنها، لأنه يحفظ للأمة كيانها الديني والتاريخي من الذوبان، ويحمي شخصيتها الحضارية من التحلل، وكل ذلك من الأسس الهامة التي يقوم عليها بناء المجتمع، ويكمن فيها مبرر وجوده وسر بقائه. ودعوا في الوقت ذاته إلى الانفتاح على الحضارة المعاصرة انفتاحا مدروسا، والاقتباس من علومها ومعارفها ومخترعاتها وخبراتها الإنسانية، واستقدام كل ما هوضروري لتغيير حياة المسلمين نحوالأحسن، وكانت رؤيتهم تقوم على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالم المعاصر دون الذوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل .

ودخلت هذه التوجهات الفكرية التي أفرزتها الصدمة الحضارية معترك التغيير والبناء الحضاري، وحاولت أن تعالج الواقع المتردي للعالم الإسلامي حسب رؤاها وتصوراتها، لكنها كبت جميعا، ولم توفق في احتواء التحديات، وتحديد الأولويات، ووضع فاطرة النهضة في طريقها الصحيح، فمرت العقود تلوالعقود والعالم الإسلامي يراوح مكانه، والهوة تزداد اتساعا بينه وبين الغرب، ومضاعفات التخلف تضغط على قواه وتشده أكثر فأكثر إلى الخلف، وما زال سؤال النهضة مطروحا بالصيغة نفسها التي طرح بها أول مرة منذ قرنين أوأكثر وكأنه جرح نازف : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟

بل إن هذا السؤال قد ازداد حدة بعدما أخذت بعض بلدان العالم الثالث زمام المبادرة وحددت لنفسها بداية الطريق، وسارت أشواطا واسعة في مضمار النهضة، فأعيد طرح السؤال بمرارة وحسرة : لماذا استطاعت بلدان غير إسلامية مثل اليابان التي انطلقت لبناء نفسها مع مصر في نفس التاريخ وبظروف متشابهة أن تحقق نهضة حضارية عملاقة بينما ما زالت مصر في بداية الطريق على

الرغم من تشابه المقدمات لكن مع اختلاف كبير في النتائج ؟. وأمام هذا التأزم الحضاري نتساءل :

لماذا عجز العالم الإسلامي طول هذه المدة عن الخروج من مأزق التخلف؟ هل المشكلة تكمن في عالم الأفكار ؟ أم في عالم الأشخاص ؟ أم في عالم الأشياء ؟ أم في عجز المسلمين عن بلورة نظرية في العلاقة مع الذات والتعامل مع الآخر والإمساك بأبعاد فقه التحضر، وفك رموز جدلية التخلف والتقدم ؟ أم في غياب مشروع حضاري أصيل، واضح المعالم، بين القسمات، متكامل الأطراف، قادر على استيعاب التحديات، ووضع اليد على مكامن الخلل، والاستفادة من العثرات والإخفاقات المتكررة، واستشراف المستقبل، وتحديد نقطة الانطلاق بدقة ؟

وهذه الورقة تطمح إلى البحث في ثنائية التخلف والتقدم في العالم الإسلامي وتتبع مراحلها المختلفة، وتحاول استكشاف الأبعاد الحقيقية التي تتحكم في هذه الثنائية، وتسعى إلى تسليط الضوء على العوامل والأسباب التي أدت إلى فشل الطروحات النهضوية ومشاريع التحديث المتعددة في تحقيق الاستقلال الحضاري للأمة، وتهدف إلى رسم استراتيجية واضحة للخروج من المأزق الحضاري .

ومما لا شك فيه أن الإجابة عن هذه الإشكالات ستساعدنا على تحليل سؤال النهضة في العالم الإسلامي، والبحث في مدلولاته ومضامينه رغبة منا في استشراف آفاق العالم الإسلامي في بداية الألفية الثالثة وعصر العولمة.

أولا : المسلمون وأزمة التخلف الحضاري

لقد كان انحطاط العالم الإسلامي وسقوطه في وهدة التخلف إفرازا طبيعيا لعوامل ذاتية داخلية ما فتئت تنخر بنيانه حتى أنهكت قواه وأسلمته لحالة الانحطاط الفظيعة التي وصل إليها في العصور الحديثة. وقد شمل هذا الانحطاط جميع مجالات الحياة وشؤونها، وألقى بظلاله القاتمة على كل القطاعات الحيوية في الأمة : في العقيدة والتربية والأخلاق والتعليم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ...

وعلى الرغم من الانهيار الشامل الذي أصاب الحضارة الإسلامية بعد أن فقدت خطوط اتصالها بمذهبيتها، وانحسرت أمام موجات النكوص، إلا أن عوامل القوة الذاتية فيها لم تمت وبقيت كامنة في أعماقها، تطفو إلى السطح بين الفينة والأخرى، وتظهر في شكل حركات تجديد، تعبر عن القلق الحضاري الذي ينتاب ضمير الأمة الجمعي، وتمثل رد فعل على مظاهر الانحراف والفساد، وتحاول

مراجعة الماضي، وتقويم الواقع، ونقد الذات للوقوف على أسباب التقهقر والسقوط، والتمهيد لإعادة بناء الكيان المتهدم. إلا أن إكراهات الواقع الثقيلة كانت أقوى منها كلها .

وتعد الحركة الوهابية التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنجد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أول محاولة لطرح مشروع إسلامي جديد في العصر الحديث. وقد جاءت كرد فعل قوي على الوضع المتردي الذي آلت إليه الأمة في ذلك الوقت حيث انتهى واقعها :<< إلى وضع من الوهن الشامل الذي يمثل خلاصة التخلف الذي انحدرت إليه الأمة منذ قرون قبل ذلك. فكأن ذلك الانحدار قد وصل إلى النقطة التي تلامس أصول وجودها ملامسة تهديد بالإتيان عليه. فكانت النقطة التي أدت في الوقت نفسه إلى استفزاز ضميرها من شدة الخطر الداهم ليستيقظ ويتجه في سبيل الدفاع عن الذات >>[1]. ويدخل ضمن هذا الإطار عدد من الحركات التي حذت حذوها وكانت صدى لها، والتي اصطلح على تسميتها بالدعوات الاصلاحية، ومنها الحركة السنوسية، والحركة المهدية وغيرها .. فقد اتفقت هذه الحركات على أمهات القضايا التي يجب أن تعالج لينهض المسلمون من كبوتهم، والتي تتمثل في العودة إلى الأصول وفتح باب الاجتهاد وتنقية الدين من الخرافات والبدع ومحاربة التصوف المنحرف وتصحيح اعتقاد العامة. فالحركة التصحيحية كانت داخلية، والعلاج الذي طرح كان أيضا داخليا .

ثانيا : لحظة الصدام وميلاد السؤال

غير أن الانبعاث الإسلامي لم يُقدَّرْ له أن يكمل مسيرته بالوتيرة نفسها التي بدأها. إذ سرعان ما انحنت هذه المسيرة منعطفا حاسما حينما اصطدمت بالغرب الاستعماري، ووجدت نفسها وجها لوجه مع الحضارة الأوروبية بكل عنفوانها وقوتها وأطماعها. فقد كانت لحظة الاحتكاك التاريخية التي جمعت المسلمين بالغرب لحظة تاريخية انتشت فيها أوروبا، وشعرت فيها بعظمتها وجبروتها، واهتز لها العالم الإسلامي هزة عنيفة زلزلت كيانه، وخلخلت ثقته بنفسه، وصدمته صدمة صاعقة جعلته يدور حول نفسه ولا يعرف فوق أي أرض يقف : << فالإنسان أوروبا قام ــ دونما قصد ــ بدور (الديناميت) الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام. وبذلك شعر انسان ما بعد الموحدين ... بهزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه >>[2]

لقد أدرك العالم الإسلامي بعد الدهشة المروعة أن الموجة الغربية الحديثة لون جديد من ألوان التحدي الحضاري لا تشبه في وجه من وجوهها أنواع التحدي الذي واجهه في الماضي، لأنها عرته أمام نفسه، وكشفت له أمراضه الداخلية، وأماطت اللثام عن عيوبه وعجزه وتخلفه المريع، وجعلته يدرك يوما بعد يوم مقدار التقهقر والتراجع الذي سقط فيه .

وفي خضم هذه التغييرات الجذرية التي نقلت العالم الإسلامي من حالة إلى حالة ظهرت ردود الفعل، وتحركت القوى المفكرة في الأمة تمعن النظر في الواقع الجديد، وتفحصه، وتتلمس قسماته، وتتعرف إلى مكوناته، وتحاول أن تعيد للنفسية المسلمة توازنها الذي فقدته عند الصدمة الأولى .وفي هذا الإطار طرح السؤال المركزي الذي لا يزال يطرح إلى اليوم بنفس الصيغة ونفس الإلحاح : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ وما هي السبل الكفيلة بإخراج الأمة من وضعها المتردي والأخذ بيدها نحو النهضة لتتخلص من المغلوبية الحضارية ؟ وإلى أي حد يمكن الاعتماد على المنجزات الحضارية الغربية لمد الجسم الإسلامي بالقوة اللازمة للنهوض ؟ فقد أصبح الغرب طرفا أساسيا في هذا السؤال بعد أن أرغم العالم الإسلامي على الاعتراف بقوته، والاتجاه نحو نموذجه المتفوق لرأب الصدع وإصلاح الحال .

وعلى الرغم من أن الهاجس الذي سكن النخب المثقفة الإسلامية كان واحدا، والهدف الذي اتجهت نحوه كان واحدا أيضا، إلا أن الإجابات عن السؤال الكبير اختلفت، والمناهج تباينت، فأفرز الحضور الغربي القوي في الساحة الإسلامية اتجاهات فكرية متعددة، تبنت كل واحدة منها إجابة معبرة ورسمت معالم مشروع نهضوي يختلف قليلا أوكثيرا عن المشاريع الأخرى التي نبتت في الأرض نفسها، وخرجت من الظروف نفسها، وعلى هذا الأساس، فإن الفكر الإسلامي أثناء تلمسه طريق الخلاص من التخلف وتحقيق النهضة اتخذ ثلاثة محاور أساسية: ـ الأول : يرى أن النهضة لا تتم إلا عبر محاكاة الغرب والأخذ بحضارته

ـ والثاني : يعتقد أن النهضة لن تثمر إلا بمحاكاة الماضي الإسلامي والتمسك بالتراث ورفض الوافد الجديد رفضا تاما.

ـ والثالث وقف موقفا وسطيا توفيقيا بين تطرف الأول وتشدد الثاني، وحاول إيجاد صيغة تحفظ للأمة كيانها الديني والتاريخي، وتمكنها في الوقت نفسه من الاستفادة

من الحضارة الحديثة، والاقتباس من علومها ومعارفها بالقدر الذي يضمن لها السير الصحيح في طريق النهضة .

ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الانشطار الفكري لا يزال يسيطر على الساحة الثقافية الإسلامية إلى يومنا هذا.

وقد مثل رفاعة رافع الطهطاوي، وخير الدين التونسي صورة صادقة للحالة التي عاشها المثقفون المسلمون بعد الصدمة الحضارية التي أحدثها احتكاكهم بالحضارة الأوروبية، حيث أصيبوا بالانبهار الشديد الناتج عن إدراكهم لعمق الهوة الفاصلة بين العالم الإسلامي والغرب، ووقوفهم على مقدار التقدم الهائل الذي أحرزه الأوروبيون في مقابل التخلف المريع الذي سقط فيه المسلمون خلال الفترة التي استسلموا فيها للدعة والخمول.

وكان المشروع الذي طرحاه من أوائل المشروعات النهضوية التي ظهرت في العالم الإسلامي، وقد قام على الدعوة إلى الانفتاح الواسع على الغرب ، والاقتباس اللامحدود منه، وحصر نهضة الأمة في اقتداء هذا النموذج، لكنه لم يغفل الذات الحضارية، وحرص على أن يتناسب الوافد مع أصولها ومقوماتها[3]، وقد كان رد فعل على الصدمة الحضارية، وحلا استعجاليا متناسبا مع الظرف الحرج الذي عاشه العالم الإسلامي في ذلك الوقت، حيث تدفق سيل الحضارة الغربية عليه وهو في وضع متضعضع ومتفكك وهش لا يقوى على أية مقاومة، وأمراضه التي ورثها عن عهود الانحطاط تنهش جسمه، وتقتل كل بارقة أمل في أن يتمكن من الصمود أمام الزحف الأوروبي.

وقد اعتقد هؤلاء الرواد أن استنساخ المظاهر الحضارية الغربية كفيل بمداواة جروح الأمة الغائرة، ودفع عوائل الاستعباد والتبعية عنها. وغاب عنهم ــ في عز الأزمة وشدة وطأتها ــ أن الأحداث التاريخية الكبرى التي تمخضت عنها التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تنعم بها أوروبا وتتفيأ ظلالها كانت وليدة جملة من العوامل والأسباب اللصيقة بالبيئة الأوروبية والعقلية الأوروبية، واستعداد المجتمع لمثل تلك الانقلابات التي دامت قرونا، وكانت عسيرة المخاض، شارك في تحقيقها الفلاسفة والمصلحون والمفكرون والثوار والساسة الأوروبيون، حتى غدت مكاسب عليا لا يجرأ أحد على المساس بها، واستقر احترامها وضرورة المحافظة عليها في اعماق كل مواطن، واستيرادها جاهزة لإسقاطها على المجتمع الإسلامي الذي يغاير المجتمع الغربي في كل شيء محاولة

فاشلة، كما أن السعي للتوفيق بين مبادئها والمبادئ الشرعية الإسلامية يفرغ كلا الجانبين من محتواهما الثقافي، ويصبحان بلا معنى.

ثالثا : سؤال النهضة والإجابات الكبرى

وإذا كان أوائل المفكرين المسلمين الذين احتكوا بالحضارة الغربية أيام تسللها البطيء إلى العالم الإسلامي قد قدموا ما في وسعهم، وأشاروا إلى طريق الخلاص كما صورتها لهم تجربتهم المحدودة، وظروفهم الخاصة، فإن الأحداث بعد ذلك تسارعت واتخذت منحى آخر تمثل في اختراق أوروبا للعالم الإسلامي اختراقا مباشرا، واتساع نفوذها فيه اتساعا كبيرا، واستقرار مؤسساتها العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية استقرارا مكينا، قلب فيه موازين القوى، ووضعه في موقف حرج جدا لا يحسد عليه. وتحتم على أبناء العالم الإسلامي اتخاذ موقف واضح من كل هذه التغيرات التي تم فرضها عليهم من الخارج وبالعنف. وفي ظل هذه الظروف نشأت الإجابات الكبرى على سؤال النهضة، وتبلورت الاتجاهات الفكرية العامة التي حاولت تلمس طريق الخلاص، والخروج من حالة الدهشة والتردد إلى مجال الفعل والإنجاز.

ـ الإجابة الأولى : ـ التيار التحديثي العلماني

ظهر التيار التحديثي العلماني في العالم الإسلامي نتيجة لسياسة التغريب التي مارستها أوروبا الاستعمارية، والتي كانت ترمي من ورائها إلى سلخ المجتمعات الإسلامية عن هويتها وإدماجها في النموذج الحضاري الغربي ليسهل إخضاعها، وتتيسر عمليات استغلالها اقتصاديا، وتضمن ولاءها وتبعيتها الأبدية. وقد وجدت هذه السياسة استجابة من بعض شرائح الأمة الذين انبهروا انبهارا شديدا بما تتمتع به أوروبا من قوة وعظمة وتقدم، ورأوا أن النهضة لا تمر إلا من هذه الطريق، وأن العالم الإسلامي لن يخرج من ليل التخلف إلا إذا احتذى سيرة أوروبا، وترسم خطاها واستنسخ مظاهر مدنيتها، وتخلص من عبء تراثه الثقيل، وعليه فقد بنى مشروعه النهضوي على تحديث البلدان الإسلامية وفق النمط الأوروبي، بتبني مجموعة من **الأسس والمبادئ تتمثل في :**

1 ـ العقلانية والوضعية في الجانب الفلسفي

2 ـ العلمانية التي تفصل بين الدين والدولة في الجانب السياسي

3 ـ الحرية ومبدأ المنافسة الفردية في الجانب الاقتصادي

4 ــ تمجيد الإنسان والسعي نحو المنفعة الدنيوية في الجانب الأخلاقي

ومن أبرز أعلام هذا التيار : أحمد خان، ومصطفى كمال أتاتورك على الرغم من أنه لم يكن مثقفا ولا عالما ولا مفكرا من طراز خاص، بل كان جنديا في نشأته، سياسيا في اتجاهه لكنه أسهم في دعم هذا التيار والتمكين له إسهاما لا ينكر، وفرح أنطوان، وشبلي شميل، ويعقوب صروف، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وسلامة موسى[3]، وغيرهم.

وخرج هؤلاء الأعلام جموعا زاخرة من التلاميذ الذين تسلموا منهم راية القيادة، واستمروا على النهج نفسه، تؤيدهم الدوائر الغربية وتشد أزرهم وتمكن لهم بنفوذها من تسلم المناصب الرفيعة في مختلف البلاد الإسلامية، وهذه الفئة المتغربة هي التي راهنت عليها الدول الاستعمارية عشية انسحابها من الأقطار المستعمرة ومهدت لها السبيل لتخلفها على مدة الحكم حتى يتسنى لها الاستمرار في تطبيق برنامجها الاستغلالي في الميدان الاقتصادي، ويسهل عليها تكريس تبعيتها في الميادين السياسية والثقافية : << إن الدولة الحديثة القائمة على إبداع غربي، ملزمة منطقيا بالتمثل القانوني للغرب، بنقله ونسخه وتقليده، فيجري استبدال الشرع بالدساتير الغربية، ويجري إبعاد العلماء ورجال الدين عن المجالات الحقوقية والإدارية لتحل محلهم النخبة التي تثقفت حديثا على مثقفي الاستعمار. إن هذه النخبة كانت نتاج إعداد دقيق من الرؤى والمؤسسات الغربية التي هدفت الى تأهيل هذه النخب لقيادة المجتمعات المفسخة التي سيجري " تحريرها " من أصولها ولحمتها وعصبيتها التاريخية >>[4].

ومازال هذا التيار إلى يومنا هذا يمسك بزمام الحكم في البلاد الإسلامية بيد من حديد، وما زال مصرا على تنفيذ بنود مشروعه النهضوي التغريبي لإلحاق العالم الإسلامي بالحضارة الغربية ودمجه فيها على الرغم من كل ما سفرت عنه التجارب المتعددة والمتكررة من الإخفاقات وأنواع الفشل الذريع.

الإجابة الثانية : التيار التقليدي المحافظ

يمثل هذا التيار التوجه المناقض مناقضة تامة للتيار الحداثي العلماني[5] ورد الفعل القوي المتطرف على حركة التغريب القوية المتطرفة. فمثلما اختارت طائفة التماهي في الحضارة الغربية والانسلاخ الكلي من الأصول، رأت هذه الطائفة أن السلم طريق إلى تحقيق النهضة هي التمسك بالماضي والنسج على منواله، وتقديس

الأسلاف، والاحتماء بالموروث، وإعادة استنساخ الحقبة الماضية بكل مواصفاتها، ومقاطعة الحضارة الأوروبية ورفض كل ما يصدر عنها، واتخاذ موقف معاد من مكتسباتها الحضارية مهما كان نوعها، لأنها تمثل تهديدا خطيرا للهوية الحضارية للمسلمين.

ومما زاد هذا التيار انكفاء وتراجعا وإغراقا في التقوقع والانغلاق ما ظهر من عداء سافر للإسلام من جانب الغرب، وما تكشفت عنه سياساته الاقتصادية والثقافية من أهداف استغلالية واستئصالية، ورغبة جامحة في تهميشه وتغييبه بمختلف الوسائل والأساليب، حيث أثارت هذه المؤامرات المعلنة والخفية شعورا عميقا بالخطر، وإحساسا قويا بوجوب الانعزال والمنافحة والتشبث المستميت بالهوية، وكان هذا التيار سباقا في إبراز التناقض المعرفي والثقافي مع المشروع الغربي، ورفض التنميط الثقافي باسم وحدة الحضارة وتفوق المركز الأوروبي[6].

وإذا كان أنصار التيار التقليدي المحافظ ـ في عهد المجددين الأوائل ـ يمثلون مواقف متطرفة لفئات معينة، لم تتبلور وتقوى لتكوّن اتجاها بارزا في الساحة الثقافية الإسلامية، فإن الأحداث المتسارعة التي عصفت بالعالم الإسلامي منذ سقوط الخلافة وخضوع الدول الإسلامية للاستعمار الغربي، وظهور بوادر الحركة الصهيونية في فلسطين، وما صحب ذلك من خيانات غربية للشعوب وتلاعبات بمصائرها واستهتار بحقوقها قد أعطى دفعا قويا لهذا التيار، وعزز صفوفه، وجاء تشدده في التمسك بالماضي ورفضه القاطع للحضارة الغربية وكل ما يمت إليها بصلة، والتطرف في إظهار ولائه المطلق لتراثه ردا عنيفا على كل ممارسات الغرب الإذلالية، وسياساته الاضطهادية. وقد ظهرت ظاهرة التطرف في الحركة الإسلامية مع هيمنة التغريب : << وتصاعدت مع تصاعده، وهي تتوزع عنوه ... ويتولى أن العلوسيقي بدرجات شتى وأشكال متنوعة وعلى فترات ممتدة أومتقطعة ما بقيت هيمنة التغريب، ولن تضعف إلا بضعفها >>[7].

الإجابة الثالثة : التيار الإصلاحي الوسطي

ظهر التيار الإصلاحي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكوّن بمجموع الطروحات الفكرية التي قدمها أعلامه اتجاها بارزا في الفكر الإسلامي الحديث، أخذ على عاتقه مهمة الإجابة عن السؤال الحرج : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟. وقد تميزت الظروف التاريخية التي عاصرها أعلام هذا التيار بتغوّل أوروبا وتحولها إلى قوة إمبريالية استعمارية متوحشة، ابتلعت أجزاء من

العالم الإسلامي وتتحفز بإصرار وقوة لابتلاع ما تبقى منه، وانكشف الوجه الاستغلالي للغرب وظهرت أطماعه واضحة جلية، وتفطن كثير من المفكرين لموجة الغزو الفكري التي استهدفت التشكيك في الإسلام، والطعن في قيمه ومبادئه، وإثارة الشبهات حول قدرته على مواكبة العصر، وخفت حدة الصدمة الأولى التي أذهلت الجيل الأول، وظهر تغيير واضح في نوعية الإجابة التي قدمها هذا التيار .

إن أبرز ما ميز الطرح الفكري النهضوي الذي عالج به التيار الإصلاحي حالة الأمة المتردية هو التركيز بشكل كبير على الأمراض الداخلية، والعكوف على تحليل الوضع الذاتي للأمة والاجتهاد لإيجاد مكمن الخلل فيها، إيمانا منه أن الانتكاسة التي أصابتها كانت نتيجة أخطائها وانحرافاتها، وقد زادها الاستعمار الغربي ضعفا على ضعف، ثم تحديد آليات التعامل مع الحضارة الغربية ومنجزاتها

ومن أبرز أعلام هذا التيار وقادته الكبار الذين أسهموا في وضع أسسه والتنظير له، وكانت لهم جهود كبيرة في النضال من أجل مبادئه، والسعي المتواصل لتحقيق أهدافه على أرض الواقع نذكر : جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، وأبو الأعلى المودودي، ومحمد الطاهر بن عاشور، وسيد قطب، ومالك بن نبي[8] وغيرهم .

وقد قام هذا التيار على أسس عامة تمثل الخطوط العريضة للمشروع النهضوي الذي قدروا أنه كفيل بإخراج الأمة من أزمتها الحضارية، ووضعها في الطريق الصحيح الذي يضمن لها **التحرر والنهوض** :

أ ــ الدعوة إلى العودة الصادقة إلى تعاليم الكتاب والسنة، والاتصال المباشر بهما واستلهام الحلول الإسلامية للواقع المعاصر من خلال الاستنباط الأصولي .

ب ــ محاربة التقليد والتعصب المذهبي والطائفي، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد، والاعتماد على الفهم المقاصدي للشريعة في سبيل إحداث الانسجام بينها وبين طبيعة العصر .

ج ــ الانفتاح الحذر على الحضارة الغربية، واستصحاب الحاسة النقدية في اقتباس المكتسبات العلمية والعمرانية منها مما لا يتصادم مع كليات العقيدة الإسلامية، ومحاربة التقليد الأعمى للغرب.

د ــ التوفيق بين العلم والإيمان. يقول الأفغاني : << القرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقي خصوصا في الكليات. فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة، ورجعنا إلى التأويل، إذ لا يمكن أن

تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق، كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود، ولوجاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية، والبرق، وما تفعله الكهربائية من العجائب وغير ذلك، لضلت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذبا >>[9] .

ه ـ رفض الاستبداد السياسي باعتباره مظهرا من أهم مظاهر التخلف في البلاد الإسلامية، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن جمال الدين الأفغاني هوالذي ضرب بسهم وافر في هذا المجال، وإن تضمن الخطاب الإصلاحي لكل من جاء بعده تعبيرا عن رفض الاستبداد، ودعوة مخلصة لتبني النظام الإسلامي القائم على الشورى والعدل، غير أنه تميز عنهم جميعا بدعوته الحارة إلى إصلاح نظام الحكم في مختلف البلدان الإسلامية، والحد من سلطات الحكام، وإشراك الجماهير في سياسة الدولة عن طريق المجالس الانتخابية التي تسهر على حفظ مصالح المواطنين .

والدفاع الحار والمستميت عن الإسلام وكتابه وشريعته ونبيه وتاريخه ضد شبهات المستشرقين ومطاعنهم، وهجوم الفئات المتغربة .

ز ـ تنمية الوعي الديني في نفس المسلم، وتبصيره بوظيفته السامية التي خلقه الله من أجلها، وبث روح العمل فيه ليقوم بصنع التاريخ وتغيير واقعه بإرادته، وصنع مستقبله من المنطلقات الأساسية للإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا .

رابعا : مشاريع النهضة وعوامل الإخفاق

لقد مثلت العشرية الأخيرة من القرن العشرين ـ وهي الفترة التي كان الغرب يستعد فيها لدخول الألفية الثالثة بطموحات وآمال تتجاوز الأحلام ـ مرحلة من أحرج المراحل في التاريخ الإسلامي، لأنها الفترة التي اكتشف فيها بكل مرارة أنه ـ وبعد قرابة قرنين من الجهود التصحيحية والتجديدية ومشاريع النهضة والتحديث ـ ما زال يراوح مكانه، ويعيش نفس الإشكاليات الحضارية التي كان يعيشها في بداية القرن التاسع عشر، ويعاني من العلل نفسها في جميع الميادين : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويتخبط في وهدة التخلف بكل أشكاله، والتبعية القطيعة بكل ألوانها، ولم يتغير في واقعه سوى ازدياد عمق الهوة التي تفصله عن الغرب الذي كان يأمل في يوم ما أن يلحق به، واتساع الفجوة بينهما اتساعا مخيفا، وفشل جميع المشاريع النهضوية التي راهنت عليها النخب المسلمة فشلا ذريعا، ووصولها إلى مرحلة الأزمة التي لم يعد بإمكانها معها أن تقدم شيئا جديدا، وبدأت معها تشيد تهافت طروحاتها وهشاشتها، وشاع في الأدبيات الفكرية

الإسلامية جملة من المصطلحات التي تعبر عن هذه الوضعية العربية التي انتهى إليها المسلمون مثل " عصر الأزمة المفتوحة " و" الانهيار الشامل " و" الانحطاط المعاصر " و" الانكشاف الكلي " و" فشل التحديث والعصرنة " و" المأزق التاريخي " و" أزمة التقدم العربي "[10] وما إليها. وأصبح السؤال الذي كان يبحث عن سبب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، يبحث عن سبب فشلهم في النهوض وعجزهم عن تحقيق النهضة المنشودة بعد هذه الحقبة الزمنية الطويلة، ويتساءل أين ذهبت تلك الجهود المتواصلة، والمشاريع المتعددة، والشعارات الكثيرة التي ملأت سماء العالم الإسلامي ضجيجا، وملأت القلوب آمالا وأحلاما ؟، وبذلك أصبح سؤالا مزدوجا، وأزمة مضاعفة، ووضعا حضاريا حرجا، ومستقبلا ضبابيا .

وفي ضوء الدراسات الكثيرة التي طرحت في الساحة الإسلامية قضية النهضة في محاولاتها وانتكاساتها، وحاولت قراءة هذه الفترة ضمن فكر المراجعات الذي فرض نفسه ودفع المفكرين والدارسين دفعا لتشريح المشاريع التي تبنت النهضة وقادت مختلف توجهاتها، يمكننا الوقوف على جملة من العوامل الجوهرية التي كانت ــ بشكل أوبآخر ــ سببا في تيافت المشاريع النهضوية وإخفاقها في تحقيق الحلم الإسلامي .

ــ التيار التحديثي العلماني : لقد تكشفت التجربة المأساوية للتيار التحديثي العلماني عن إخفاقه في تحديد ماهية المجتمع الإسلامي، وفشله في تصور مشروعه النهضوي، وعجزه عن معرفة الآليات التي تحرك المجتمع من الداخل فيستجيب لدواعي التحديث ويتفاعل معها، وظهر للجميع بعد عقود من الممارسات القهرية أن العالم الإسلامي ــ في ظل السلطة التحديثية ــ لم يتقدم قيد أنملة، وأنه لم يحقق أي هدف من الأهداف الإستراتيجية التي كان يحلم بها

وانتهى الدارسون والمحللون إلى أن هذا الإخفاق الشنيع في احداث النهضة إنما يعود بالأساس لمصادمة المشروع التحديثي العلماني للمعادلة الاجتماعية للأمة، ومحاولته فرض نظريات وفلسفات تصطدم مع هويتها الحضارية وتتعارض مع موروثها الثقافي الذي تستمد منه أسباب الوجود ومعالم التميز. ذلك أن العوامل الثقافية والدينية والتاريخية تلعب دورا أساسيا في صياغة الخصائص النفسية لكل أمة، وتكون هذه الطبائع هي الآلية المحركة للمجتمع والمشاريع النهضوية التي تعمل على تغيير واقع المجتمعات المتخلفة ملزمة بمراعاة المعادلة الاجتماعية لهذه المجتمعات، لأنها إذا لم تكن منبثقة من طبيعة

الأمة، منسجمة مع خصائصها الحضارية، مستوحاة من حاجاتها الحيوية فلن تجد استجابة من الجماهير .

وقد تأكدت هذه النظرية بعد التجربة الطويلة والمرة التي قام بها التيار التحديثي العلماني في العالم الإسلامي، وما زالت تثبت صحتها يوما بعد يوم، وتعلمنا الانتكاسات المتوالية أن النهضة يجب أن تنبثق من عمق الموروث الثقافي للأمة الإسلامية، وأن ترتكز في انطلاقتها على أفكار الأمة وقيمها وتتجاوب مع تركيبتها الثقافية والاقتصادية والسياسية والتربوية. إن الفكر النهضوي يجب أن يكون فكرا خصوصيا يولد وينجح في وسط اجتماعي وتاريخي يستمد حياته من تراث الأمة، وهوفكر إنساني يخضع في سماته العامة لمعادلتها الاجتماعية التي تعطيه صفة الخصوصية وتجعله غير قابل للتصدير والاستيراد .

وقد وعى كثير من دعاة الحداثة والعلمانية ـ بعد فشل طروحاتهم النهضوية ـ أن أي اتجاه تحديثي مهما بلغت حداثته لا يمكنه الاستقرار في التربة الإسلامية إذا أغفل معطيات الواقع العربي الإسلامي التي ما زالت مؤثرة بعمق وتواتر في المعتقد والفكر والسلوك .ومنهم محمد حسين هيكل الذي اعترف بأن البذر التحديثي كان يرمى في التربة العربية فلا تستجيب له، ولا بد من بذر مخصوص صالح لطبيعتها : << لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية، لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا. ولكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه. وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلا لوحي هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة، وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هووحده البذر الذي ينبت ويثمر >>[11].

وهذا يعني أن التقليد طريق منحرف لن يفضي أبدا إلى النهوض. ولن يكون سبيلا قويما للانطلاق الحضاري، لأن الحضارة والنهضة ولادة داخلية وإبداع ذاتي، لا يستعار ولا يستورد. وهي تنبثق من الحاجات الأساسية والضرورات الملحة التي تحس المجتمعات أنها بحاجة إليها فتكيفها وفق قيمها وتحددها حسب احتياجاتها فتكون تعبيرا صريحا وحقيقيا عن هويتها الحضارية.

وفي هذا الإطار يمكننا إدراج التيار التقليدي المحافظ الذي قام هوأيضا على تقليد الأسلاف والتمسك بأهداب الماضي، والقطيعة مع المتغيرات الجديدة،

والمنظومة المعرفية التي تصنع الحدث وتشكل الواقع، وانسحب من الحياة وصراعاتها واحتضن التراث بشدة وقاوم تيار التغريب لكنه لم يستطع أن يقدم البديل الذي ينافس النموذج الحضاري الأوروبي ويحد من امتداده، ولم يستطع أن يصوغ مشروعا حضاريا متكاملا يؤسس للنهضة على قواعد متينة بل اكتفى بالتحصن في المواقع الدفاعية الأمر الذي أفرغ الساحة الفكرية والواقعية من فعالياتهم وتركها نهبا للاستلاب الحضاري والتغريب .

أما بالنسبة للتيار الإصلاحي التوفيقي الذي أسس مشروعه النهضوي على القاعدة الإسلامية ووضع ضمن مبادئه ضرورة الاستفادة من الغرب في الحدود التي تتناسب مع مقاصد الشريعة وكلياتها العامة كإجراء ضروري .انسحام بالواقع والتأثير فيه ومعايشته دون فقدان الهوية الحضارية، فقد كان منذ البداية عبارة عن رد فعل للتحدي الغربي الكاسح الذي استهدفه استهدافا مباشرا، وجنّد لإقصائه وتهميشه واحتوائه، وتكميره إن أمكن كل ما تفتقت عنه عبقرية مفكريه وساسته .

وبذلك وجد التيار الإصلاحي نفسه ــ منذ أول يوم ــ مضطرا للدخول في مواجهة سافرة وعنيفة مع مقولات الحضارة الغربية ونماذجها التحديثية، وكان لابد لاختلال ميزان القوى الذي رجح كفة الفكر الغربي ومشروعه أن يكون له تأثيره على التيار الإصلاحي الذي وجد أن النموذج الإسلامي الذي صاغه علماؤه ومفكروه للخروج من حالة التردي الحضاري الشامل، والذي اجتهدوا في أن يزاوجوا فيه بين الأصالة والمعاصرة مجبر على الانزواء والتقهقر. وقد أرغمته الهزائم المتتالية، والضربات القاسية التي لم يتوان الغرب عن إلحاقها به لأنه صاحب السيطرة الفعلية على الواقع على الانطواء على نفسه، والانكماش والانغلاق والتراجع إلى خط الدفاع كثقافة شعبية مغلوبة لا علاقة لها بتحديد الخيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنموية والاقتصادية والتربوية للمجتمع، ولم يستطع قادة هذا التيار الذين نادوا بتطبيق المبادئ والمعايير والسياسات الإسلامية أن يضعوا كل ذلك موضع التطبيق لأنهم لم يكونوا في موقع القرار، بل كانوا مهمشين مبعدين عن الحركة التي تموج بها الساحة الإسلامية لحساب النخب السياسية الاقتصادية الثقافية الداعية إلى التحديث في المجتمع وفق النموذج الغربي.

لذلك غلب على التيار الإصلاحي طوال هذه المدة الطابع التعبوي الدفاعي، وظل مرابطا في الخنادق الأمامية يدافع عن الكيان الحضاري للأمة، ويحمي بيضته، ويرد عنه الشبهات ويدحض الأباطيل، ويحافظ على التوازن

النفسي للإنسان المسلم حتى لا يجرفه التيار التغريبي العاتي ويقتلعه من جذوره، وكان طبيعيا أن تحتجز هذه المعارك الفكرية المستمرة نشاط المفكرين الإصلاحيين، وأن تستوعب فاعليتهم وتستهلك جهودهم ونشاطاتهم الذهنية، وأن يحرمهم هذا الاستنزاف الفكري الطويل من النظر في مشكلات الأمة الحقيقية، ويحول دونهم ودون القدرة على تصنيفها، وبتقييم على مستوى رد الفعل في علاقتهم وصراعهم مع المشروع التغريبي، الأمر الذي يفسر إخفاق مشروعهم النهضوي، وإعادة إنتاج الفكر الإصلاحي لقضاياه القديمة، وإعادة طرحها بنفس الشروط وذات المواصفات التي كانت ملازمة له مع أوائل القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أن المشروع النهضوي الذي قدمه التيار الإصلاحي قد أخفق في تحقيق أهدافه نظرا للصراع المحتدم بينه وبين التيار التغريبي المدعوم عالميا بالمركزية الغربية المتمددة في أنحاء العالم، والذي سعى وما زال يسعى إلى مسحه من الوجود لأنه يمثل تهديدا لاتجاه العولمة الرامي إلى قولبة العالم كله في القالب الغربي وتذويب جميع الثقافات والكيانات الحضارية الممانعة والمقاومة، فإنه أثبت خلال تاريخه الطويل أن صموده في وجه التحديات وتجاوزه للمحن والنكبات دليل على انبثاقه من عمق الأمة، وبرهان حي على تمثله لآمالها وآلامها وانخراطه انخراطا عميقا في ثنايا ذاتها الحضارية المتوثبة للظهور. وإليه يعود الفضل في تعبئتها لمقاومة الاحتلال العسكري، ومواجهة معارك الإفناء مواجهة صلبة، والثبات على المواقع أثناء الأزمات الخانقة بقيادته لحركات التحرر، والانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة التي أنهت الوجود الأوروبي في البلاد الإسلامية .

ومما سبق نخلص إلى أن إخفاقات مشاريع النهضة تتعلق بعوامل كثيرة من أهمها الميل إلى التقليد يستوي في ذلك المقلدون للتراث النزاعون إلى رفض سائر الآثار الغربية، المعتزون بأصالتهم، والمقلدون للغرب، المنفتحون انفتاحا واسعا على فكره دون ضوابط أوقيود، فكلا الفريقين اشتط في موقفه وتطرف، هؤلاء بالانغلاق الذي يعارض عملية النهوض ويدفن المواهب والكفاءات في كفن الماضي ويحجر عليها التفاعل مع العصر وتفجير طاقاتها الكامنة لإيجاد الحلول المناسبة لوضعيتها، وأولئك بالتماهي في الآخر إلى درجة الذوبان وفقدان الهوية الحضارية والتحول إلى تابع مبين، لا هم له سوى تكديس منجزات الغير واستجلاب بضاعته لتغيير الوجه الخارجي للمجتمع، وأصبحت الشعوب الإسلامية تحيا الحداثة بثقافة التخلف وتاريخه، فهي لا تنتج ولا تعيش الفعالية الحضارية، بل

تعيش الاستهلاك والتبعية بأجلى صورها وأشكالها، وهذا من جراء العلاقة الفوقية والمصطنعة التي تربطها بالحداثة، وفي الوقت نفسه يفرض عليها أن تمر بالمراحل نفسها التي مر بها التاريخ الأوروبي، لأن القانون النهضوي الغربي قانون عام وحتمي على مشاريع النهضة قاطبة. ولم تكن النهضة في يوم ما قائمة على التقليد أو الانغلاق، بل هي إبداع ذاتي.

ومن العوامل الأساسية في هذا الإخفاق الحضور الدائم والمكثف للغرب طوال مسيرتنا النهضوية، ذلك أن إغفال هذا العامل الأساسي فيه تجاوز لكثير من الحقائق التاريخية، فقد كانت المشاريع النهضوية العربية أساسا ومنذ البداية وليدة الصدمة مع قوة خارجية مُهَدِّدة هي قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي الاستعماري. ولم يكن هذا الغرب على استعداد لأن يفسح المجال لعدوه الحضاري ليمتلك مقومات النهوض والتقدم، وهو الذي رأى فيه غنيمة دسمة تشبع نهمه للتوسع، وتضع بين يديه ثروات هائلة لتغذية صناعته المتطورة، وتسويق منتوجاته، وإمداده بعناصر القوة والسيطرة. فكان طبيعيا أن يعمل بجد للحيلولة دون أن تحقق النهضة أهدافها ويتخلص العالم الإسلامي من قيوده وتبعيته، وأن يحرص أشد الحرص على أن لا تفوته حركة تعاكس التوجه الاستعماري أو تتجاوزه.

خاتمة

إن الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم يؤكد أن جميع الجهود النهضوية التي قام بها المسلمون منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان لم تثمر في الأخير شيئا يذكر. فالنخب الفكرية والقواعد الجماهيرية ما زالت إلى يومنا هذا تبحث في أساسات المدنية وشرائط النهضة، وهذا معناه أن النهضة الحديثة قد فشلت في تقديم الأجوبة الشافية الكافية على أسئلة النهضة، وأنها أخطأت السبيل إلى عقل الأمة وضميرها التاريخي.

إن الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم يؤكد أن جميع الجهود النهضوية التي قام بها المسلمون منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان لم تثمر في الأخير شيئا يذكر: ففي المجال الاجتماعي ما زال الإنسان المسلم يعاني من الجهل والفقر والمرض والتخلف، وتتفشى في أوساطه أنواع الآفات كالتدابر والخداع والغش والدول الإسلامية تكرست تبعيتها السياسية والاقتصادية عندما عجزت عن تحقيق أدنى أنواع التنمية الوطنية، ففشلت في بلوغ الاكتفاء الذاتي في الغذاء واللباس والدواء، وأصبحت عالة على الغرب تستهلك ما تطرحه مصانعه مما يسد

حاجاتها اليومية، وتستبدل ذلك كله بثرواتها الباطنية التي أفاء بها الله عليها، وترزح تحت مديونية رهيبة نتيجة لغياب التخطيط، وانعدام المشاريع الاقتصادية ذات الأبعاد التنموية الاستراتيجية، مما جعلها مسلوبة الإرادة في قراراتها السياسية والثقافية، ومواقفها المصيرية، وليس هناك واقع أكثر ترديا من هذا الواقع. فلماذا فشلت المشاريع النهضوية في تحريك هذا الواقع المنتكس ؟ ولماذا يميل أصحابها إلى إنتاج وإعادة إنتاج المشاكل واجترار الهموم وطرح الإشكاليات نفسها وكأنها رد فعل للعجز والفشل عن تحقيق إنجازات ملموسة على أرض الواقع ؟

إن النخب الفكرية والقواعد الجماهيرية ما زالت إلى يومنا هذا تبحث في أساسات المدنية وشرائط النهضة، بحثا عما يتعين على المسلمين أخذه أوتركه من الحضارة الغربية، ودول إشكالية الدين والدولة، وحول العلمانية ومشروعيتها، وحول المرأة وأوضاعها ودورها وسبيل النهوض بها، وحول الهوية الثقافية وموازناتها بين الوافد والموروث، وحول التراث العربي الإسلامي وكيفية التصرف تجاهه، وما تأخذ منه وما تدع، بل ومنهج البحث فيه، وحول الوحدة والتجزئة في ديار الإسلام، مقتضياتها ومشروعيتها ومحاذيرها[12]، وهذا معناه أن النهضة الحديثة قد فشلت في تقديم الأجوبة الشافية الكافية على أسئلة النهضة، وأنها أخطأت السبيل إلى عقل الأمة وضميرها التاريخي

إن اتساع الفجوة بين الحاضر والأمل المنشود يدفع العقل المسلم لمراجعة منطلقاته وإعادة النظر في قضايا النهضة والتجديد، وإن المآلات الفكرية والحضارية والاجتماعية والسياسية التي انتهت إليها النهضة الإسلامية الحديثة التي ولدت في بواكير القرن التاسع عشر تشهد جميعها بوجود خلل خطير في أساسات هذه النهضة، بحيث أدى إلى فشل هذه المجهودات الكبرى في إحداث بناء فكري ومعرفي ومدني شامل ومتزن وقوي، تعتمد عليه الأمة في مسيرتها الطموح نحوالسبق الحضاري الكبير .وهذا ما يتطلب قلب أوراق النهضة لاستكشاف جذور الخلل التي أدت إلى انهيارها، ومكامن العلل التي أضاعت مجهودات ابنائها هباء وأوصلتهم إلى طريق مسدود، وتقييمها بعين الحاضر وحس المستقبل .

لقد اكتشف المفكرون المسلمون ومن ورائهم الجماهير المنهكة أننا مازلنا في بداية الطريق لأننا مازلنا مضطرين لطرح السؤال نفسه الذي طرحناه منذ قرنين : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ وما هوالسبيل الأمثل للنهوض من هذه الكبوة الحضارية ؟والتخلص من أوضار التخلف والانحطاط والمغلوبية

الحضارية ؟، وهذا يستلزم استئناف مسيرة نهضوية جديدة على أنقاض كل الطروحات التي ملأت الساحة الفكرية والميادين الواقعية للعالم الإسلامي، وكأنها كانت سرابا طواه الأفق .

الهوامش :

---

[1] النجار، عبد المجيد. مشاريع الاشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط 1. 1999م. ص 18

[2] بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي.. دار الفكر. دمشق. 1981 م. ص 42

[3] راجع : التونسي، خير الدين. أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. تحقيق : د. معن زيادة .دار الطليعة. بيروت. ط 1. 1978 م. ص 112، 115، 147، 156، 172، 206، 247

[4] لمزيد من التفاصيل راجع : عبد الغني، د. عبد المقصود. دراسات في الفكر الإسلامي الحديث. ص 110 إلى 115. وحسين، محمد محمد. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 6. 1403 هـ ــ 1983 م. ج 2. ص 222، 229. والبهي، د. محمد. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. مكتبة وهبة. القاهرة. ط 11. 1405 هـ ــ 1985 م. ص 34 ــ 37. و[5] أمين، قاسم. الأعمال الكاملة. جمع وتحقيق : د. محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. 1976 م. ج 2. ص 209. وحسين، طه. مستقبل الثقافة في مصر. ج 1. ص 21، 45، 49، 50.

[5] إسماعيل، فادي. الخطاب العربي المعاصر.. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فيرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. ط 1. 1991 م. ص 114

[6] عمارة، د. محمد وآخرون. إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط 1. خريف 1991 م. ص 218

[7] نخبة من الكتاب. رؤى إسلامية معاصرة. تقديم : د. محمد سليم العوا. كتاب العربي. رقم 45. وزارة الإعلام. الكويت. 15 يونيو 2001 م. ص 42 ــ 43

[8] لمزيد من التفاصيل راجع : المخزومي، محمد. خاطرات جمال الدين الأفغاني. المطبعة العلمية ليوسف صادر. بيروت. 1931 م. ص 161، 177. والأفغاني، جمال الدين. الأعمال الكاملة تحقيق : د. محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. القاهرة. 1981 م. ج 2. ص 333. والأفغاني، جمال الدين ومحمد عبده. العروة الوثقى. ص 59. ورضا، محمد رشيد. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. مطبعة المنار. القاهرة. ط 1. 1931 م. ج 1، ص 11. وعبده، محمد. رسالة التوحيد. ص 141 ــ 142. والبنا، حسن. مجموعة الرسائل. المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر. بيروت. ط 2. 1401 هـ ــ 1981 م. ص 96. والمودودي، أبو الأعلى. نحن والحضارة الغربية. ص 317 ــ 318. و[8] بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة : بسام بركة وأحمد شعبو. تحت إشراف عمر كامل مسقاوي. دار الفكر. دمشق. ط 1. 1413 هـ ــ 1992 م. ص 56

[9] المخزومي. خاطرات جمال الدين الأفغاني. ص 161

[10] إسماعيل، فادي. الخطاب العربي المعاصر. ص 123 ــ 124

[11] هيكل، محمد حسين. في منزل الوحي. دار المعارف. القاهرة. ط 6. 1974 م. ص 22

[12] سلطان، جمال. " رؤية في أوراق نهضتنا الحديثة ". رسالة الجهاد. س 9. ع 92. 1990 م. ص 90